تفسير سورة الفاتحة

عبد الملك القاسم

مصدر هذه المادة:







المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فهذا تفسير شامل لسورة الفاتحة، جعلته مفردًا من كتابي: «**تفسير جزء عم**». رغبة في معرفة معان وفضائل هذه السورة العظيمة التي يقرؤها المسلم بسبعة عشر مرة في صلواته الخمس، وتزيد عن ذلك حال إتيانه بالسنن والنوافل وغيرها.

أسأل الله – عز وجل – أن ينفع بها وأن يجعلها صوابًا خالصة لوجهه الكريم.

د. عبد الملك بن محمد بن عبد الرحمن القاسم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ، إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

* سورة الفاتحة سورة عظيمة القدر، جليلة المعنى، سميت بذلك؛ لأنه – تعالى – افتتح بها القرآن الكريم، وهي سورة مكية، قيل: إنها أول سورة نزلت كاملة.

تشتمل هذه السورة العظيمة على مجمل معاني القرآن في التوحيد، والأحكام، والجزاء، وطرق بني آدم، وغير ذلك؛ ولذلك سميت: «أم القرآن»، وسميت «أم الكتاب»، «والسبع المثاني»، «وسورة الحمد»، «وسورة الصلاة»، «الواقية».

وهذه السورة لها مميزات تتميز بها عن غيرها؛ منها أنها ركن في الصلوات التي هي أفضل أركان الإسلام بعد الشهادتين: فلا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب؛ قال ﷺ: «لا صلاة لمن يقرأ بفاتحة الكتاب» [رواه البخاري ومسلم].

ومنها أنها رقية: إذا قرئ بها على المريض شُفي بإذن الله؛ لأن النبي ﷺ قال للذي قرأ على اللديغ، فبريء: «وما يدريك أنها رقية..» [رواه البخاري].

قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ليست البسملة آية في بداية جميع السور، بل هي آية فاصلة بين كل سورتين، يستحب قراءتها إلا في سورة التوبة فيكره.

﴿ بِسْمِ ﴾أي: أبدأ باسم الله، استعانة على الأداء والتوفيق.

﴿ اللَّهِ ﴾ اسم الله رب العالمين، لا يسمى به غيره؛ والله: هو المألوه المعبود، – الذي تفزع إليه الخلائق، ويلجؤون إليه في الحوائج — وهو أصل الأسماء؛ وأكبر أسمائه– سبحانه– وأجمعها ولهذا تأتي الأسماء تابعة لها.

﴿ الرَّحْمَنِ ﴾ اسم دال على أنه — تعالى– ذو الرحمة الواسعة الشاملة التي وسعت كل شيء، وعمت الخلق في أرزاقهم ومصالحهم، وعمت المؤمن والكافر؛ ولهذا جاء على وزن «فَعْلان» الذي يدل على السعة.

﴿ الرَّحِيمِ ﴾ أي: الموصل للرحمة من يشاء من عباده؛ ولهذا جاءت على وزن (فعيل) الدال على وقوع الفعل. فهنا رحمة هي صفته، – دل عليها ﴿ الرَّحْمَنِ ﴾، ورحمة هي فعله– أي إيصال الرحمة إلى المرحوم — د عليها ﴿ الرَّحِيمِ ﴾، وهو الرحيم بالمؤمنين كما قال تعالى: ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٣].

و﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾: اسمان من أسماء الله يدلان على الذات، وعلى صفة الرحمة، وأنه — تعالى– ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي

وسعت كل شيء، وعمت كل حي، وكتبها للمتقين المتبعين لأنبيائه ورسله، فهؤلاء لهم الرحمة المطلقة، ومن عداهم فله نصيب منها.

والرحمة التي أثبتها الله لنفسه رحمة حقيقية دل عليها السمع، والعقل؛ أما السمع فهو ما جاء في الكتاب والسنة من إثبات الرحمة لله- وهو كثير جِدًا-، وأما العقل: فكل ما حصل من نعمة، أو اندفع من نقمة فهو من آثار رحمة الله.

والرحمن الرحيم: اسمان كل منهما دال على صفة حقيقة لله على ما يليق بجلالة وعظمته من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، وهكذا يقال في جميع الصفات الواردة في الكتاب والسنة.

والأسماء المذكورة في هذه السورة هي أصول الأسماء الحسنى، وهي اسم: الله، والرب، والرحمن.

وفي البسملة خلاف بين العلماء؛ فمنهم من يقول: إنها آية من الفاتحة، ويقرأ بها جهرًا في الصلاة الجهرية، ويرى أنها لا تصح إلا بقراءة البسملة؛ لأنها من الفاتحة. ومنهم من يقول: إنها ليست من الفاتحة؛ ولكنها آية مستقلة من كتاب الله، وهذا القول هو الحق.

قوله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ هو الثناء على الله بصفات الكمال، وهو وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم؛ ولابد من قيد، وهو المحبة والتعظيم؛ لأنه مجرد وصفه بالكمال بدون محبة ولا تعظيم: لا يسمى حمدًا؛ وإنما يسمى مدحًا.

والحمد: هو الثناء باللسان، أما الشكر فيكون باللسان والقلب والأعضاء، ولا يكون الشكر إلا مقابل نعمة، أما الحمد فيكون لكمال المحمود ولو في غير مقابلة نعمة، والله – تعالى- له الحمد والشكر، فكل حامد شاكر وليس كل شاكر حامدًا.

والسورة تبدأ بالاعتراف، والاعتراف فيه معنى عظيم، لأنه إقرار من العبد بتقصيره وفقره وحاجته، واعتراف لله- عز وجل – بالكمال والفضل والإحسان، وهو من أعظم ألوان العبادة.

﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الرب: اسم من أسماء الله – تعالى-، ولا يقال في غيره إلا مضافًا، كقول: هذا الرجل رب المنزل، فهو المستحق للحمد وحده، وهو – سبحانه- المنشئ للخلق، القائم بأمورهم/ المربي لجميع خلقه بنعمه.

والعالمون: جمع العالم، وهو كل موجود سوى الله – تعالى- وقيل: العالم عبارة عمن يعقل، وهو أربعة أمم: الإنس والجن، والملائكة والشياطين، وتربيته لخلقه نوعان:

عامة وخاصة: فالعامة هي خلقه للمخلوقين ورزقهم، وهدايتهم لما فيه مصالحهم وأرزقهم التي فيها بقاؤهم في الدنيا، والخاصة: تربيته لأوليائه، فيربيهم بالإيمان، ويوفقهم له، ويكمله لهم، ويدفع عنهم الصوارف، والعوائق الحائلة بينهم وبينه، وحقيقتها: تربية التوفيق لكل خير، والعصمة عن كل شر.

﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ تقدم تفسيره في البسملة.

﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ المالك صفة لفعله – جل جلاله-، ويوم الدين، هو يوم القيامة، وهو – سبحانه – مالك يوم الدين والدنيا، لكن ظهور ملكوته وملكه وسلطانه إنما يكون في ذلك اليوم حيث موقف الجزاء والحساب، وفي قراءة المسلم لهذه الآية في كل ركعة من صلواته تذكير له باليوم الآخر، وحث له على الاستعداد بالعمل الصالح، والكف عن المعاصي والسيئات.

ولما حمد – تعالى – نفسه بما هو أهله، وذكر ربوبيته لخلقه، ورحمته العامة للبر والفاجر في الدنيا، ورحمته الخاصة بالمؤمنين، وتفرده بالحكم في ذلك الموقف العظيم، ذكر بعد ذلك وجوب عبادته وطاعته والاستغاثة والاستعانة به، فقال تعالى:

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ أي: نخصك وحدك بالعبادة والطاعة، وأنه لا يعبد إلا الله، وهو أصل توحيد الألوهية وما بعث به الرسل.

والعبادة: الطاعة مع التذلل والخضوع، وسمي العبد عبدًا لذلته وانقياده؛ والعبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة.

ونخصك أيضًا بالاستعانة؛ والاستعانة: هي الاعتماد على الله في جلب المنافع ودفع المضار، مع الثقة به في تحصيل ذلك.

والمعنى: لا نعبد غيرك ولا نستعينه.

وذكر – سبحانه – الاستعانة بعد العبادة مع دخولها فيها، لاحتياج العبد في جميع عباداته إلى الاستعانة بالله – تعالى – فإنه إن لم يعنه

الله، لم يحصل له ما يريده من فعل الأوامر واجتناب النواهي؛ لأن العبد عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه، ودفع مضاره، فلا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله – عز وجل-، فمن أعانه الله فهو المعان، ومن خذله فهو المخذول، وقُدمت العبادة على الاستعانة لكون الأولى وسيلة إلى الثانية، واهتمامًا بتقديم حقه – تعالى – على حق عبده، فالأول تبرؤا من الشرك، والثاني تبرؤًا من الحول والقوة والتفويض إلى الله – عز وجل-.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: تأملت أنفع الدعاء: فإذا هو سؤال العون على مرضاته، ثم رأيته في الفاتحة في ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ أي: دُلَّنا وأرشدنا ووفقنا للصراط المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف وهو الإسلام، وثبتنا عليه حتى نلقاك، وهذا الدعاء من المؤمنين مع كونهم على الهداية، بمعنى التثبيت وبمعني طلب مزيد الهداية، وهذا من أدب الدعاء أن يكون ذلك بعد الثناء.

والهداية على نوعين، هداية طريق وهداية توفيق، وهداية التوفيق خاصة بالله – تعالى – ومنها قوله عز وجل: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [القصص: ٥٦].

والهداية الثانية هداية الطريق: وهي هداية دلالة وإرشاد، وهي

للأنبياء وأتباعهم من العلماء والدعاة، ومنها قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢].

﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج في ولا انحراف، الموصل إلى جنته ورضوانه، وهو الإسلام، وسمي صراطًا مستقيمًا لأنه طريق واسع سهل، يوصل إلى المقصود، وهذا مَثلُ دين الإسلام في سائر الأديان، فإنه يوصل إلى الله، وإلى داره، وجواره، مع سهولته وسعته.

فالمسلم يدعو الله – عز وجل – أن يوفقه إلى معرفة الطريق المستقيم الموصل إلى جنته، ويدعوه أن يوفقه للاستقامة عليه بعد معرفته، فالمعرفة والاستقامة كلتاهما ثمرة لهداية الله ورعايته ورحمته، والتوجه إلى الله في هذا الأمر هو ثمرة الاعتقاد بأنه وحده المعين، وهذا الصراط المستقيم هو:

﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ طريق من أكرمتهم ووفقتهم، ومننت عليهم بالهداية والتوفيق والإيمان والاستقامة، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وهؤلاء هم القدوة لنا في حياتنا، وأضاف – سبحانه – الصراط إلى الرفيق السالكين له، وهم الذين أنعم الله عليهم، ليزول عن الطالب للهداية وسلوك الصراط وحشة تفرده عن أهل زمانه وبني جنسه.

وفي الآية توسل إلى الله بنعمه وإحسانه، إلى من أنعم عليه بالهداية؛ أي: قد أنعمت بالهداية على من هديت، وكان ذلك نعمة منك،

فاجعل لي نصيبًا من هذه النعمة، واجعلني واحدًا من هؤلاء المنعم عليهم، فهو توسل إلى الله بإحسانه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فحاجة العبد إلى سؤال هذه الهداية ضرورية في سعادته ونجاته وفلاحه؛ بخلاف حاجته إلى الرزق والنصر فإن الله يرزقه، فإذا انقطع رزقه مات، والموت لابد منه، فإذا كان من أهل الهدى به كان سعيدًا قبل الموت وبعده».

﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾.

﴿ غَيْرِ ﴾ أي: غير صراط.

﴿ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ المغضوب عليهم هم اليهود، وهم الذين علموا الحق فتركوه، وحادوا عنه على علم، فاستحقوا غضب الله.

﴿ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ أي: وغير صراط الضالين عن الهدى، وهم النصارى، وهم الذين حادوا عن الحق جهلًا فكانوا على ضلال مبين.

فقال ابن القيم: في بيان تقديم المغضوب عليهم (اليهود) قبل الضالين (النصارى) عدة أوجه: أولاها: أنهم متقدمو عليهم بالزمان، وثانيها: أن اليهود جيران الرسول ﷺ في المدينة، والنصارى ديارهم نائية، وثالثها: أن اليهود أغلظ كفرًا من النصارى، وقيل: لأن أمرهم أخطر وذنبهم أكبر، فإن الإنسان إذا كان ضلاله بسبب الجهل فإنه يرتفع بالعلم، وأما إذا كان هذا الضلال بسبب الهوى فإنه لا يكاد ينزع عن ضلاله.

ومعنى آمين: اللهم استجب لنا، وليست آية من سورة الفاتحة.

وفي الحديث عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قال أحدكم: آمين، وقالت الملائكة في السماء: آمين، فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه» [رواه البخاري].

وهذه السورة العظيمة على إيجازها احتوت على أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية: ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وتوحيد الإلهية، وهو إفراد الله بالعبادة وحده، من قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾، وتوحيد الأسماء والصفات، وقد دل عليه لفظ ﴿ الْحَمْدُ ﴾.

وتضمنت إثبات النبوة في قوله: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ وإثبات الجزاء والبعث في قوله: ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ وتضمنت إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له في قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾.

وأول السورة رحمة، وأوسطها هداية، وآخرها نعمة، وحظ العبد من النعمة على قدر حظه من الهداية، وحظها منه على قدر حظه من الرحمة، فعاد الأمر كله إلى نعمته ورحمته – سبحانه وتعالى –.

وفي السورة أدعية شاملة نافعة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – «أنفع الدعاء وأعظمه وأحكمه؛ دعاء الفاتحة».

وقد ورد في فضل هذه السورة العظيمة حديث عظيم، رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «قال الله – عز وجل – قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ قال الله: حمدني عبدي، فإذا قال: ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ قال الله: أثنى علي عبدي، فإذا قال: ﴿ مَالِكِ

﴿ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ قال: مجدني عبدي– وقال مرة: فوض إليَّ عبدي–، فإذا قال: **﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾** قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل: فإذا قال: **﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾** قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل».